العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

د. بشير رمضان التليسي
كلية الآداب - جامعة الفاتح

مقدمة:

الاهتمام والاشتغال بالماضي ضرورة من ضرورات الحاضر، ورغم الدعوة إلى التحرر من الماضي، يظل الماضي قائماً في بناء الحاضر والمستقبل، وتبدو الصلة بين الأزمنة والعصور أكثر وضوحاً عند ملاحظة المراحل المتعاقبة في المسيرة التاريخية للأمة الواحدة والمجتمع الواحد، ففي مجال نمو الأمة وتكوين المجتمع تتيح الاستمرارية التاريخية لعمليات النمو والتكوين ملاحظة أثر وفعل سابق في بناء وتكوين اللاحق، ومن أجل القيام

بتغيرات نوعية ومستقبلية في عمليات النمو والتكوين، لا بد من فهم الأسس والقواعد التي تطورت عقب المراحل المتعاقبة وهو أمر يدعو إلى مراجعة الماضي واستيعابه بحركته واستكناه القوى الفاعلة فيه، وفي إطار هذا المنظور يأتي الاهتمام بدور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الأفريقية.

التواصل بين الساحل والصحراء (الأسس، والمكونات):

يرجع تاريخ التواصل بين الساحل والصحراء الأفريقية إلى أزمنة موغلة في القدم لعل أقربها تلك التجارة التي أقامها الفينيقيون متخذين (ويات) وصبراته ولبدة الكبرى (لبتس ماجينا) Lepcis Magna محطات تجارية، إذ عبرت القوافل الصحراء محملة بالسلع المختلفة، ورجعت محملة بسلع أخرى من إنتاج دول ما وراء الصحراء، وهذا يرجع إلى حوالي القرن السابع قبل الميلاد[1].

لقد لعبت الواحات المتناثرة ما بين الساحل والصحراء دوراً مهماً كمحطات تجارية لتلك القوافل التي كانت تستريح من عناء السفر ومشاقه فضلاً عما يقوم به هؤلاء التجار من ترويج لسلعهم هناك.

هذه الصلات الأولية رغم خلوها من رابطة قوية تدعم ذلك التواصل والتبادل التجاري من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال فأدى ذلك إلى استقرار من طاب لهم المقام في الشمال أو الجنوب.

لكن هذا التواصل الذي مكن من انتقال الثقافات من الشمال إلى الجنوب والعكس، ربما لم يترك أثراً قوياً لخلوه من رباط قوي يدعمه وهو الدين.

(1) عبد الحفيظ فضيل المبار، دراسة تحليلية للنقائش الفينيقية البونية في إقليم المدن الثلاث في ليبيا، منشورات، جامعة الفاتح، الجماهيرية العظمى، 2005ف، ص32.

إذن ما هو دور الدين في التواصل الثقافي واستمراره بين شمال القارة الأفريقية وجنوبها؟

أقول إنه مع ظهور الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، تحرك الفاتحون والدعاة في أرجاء كثيرة من الكرة الأرضية لنشر الدين فكانت الحملات الأولى للمسلمين صوب بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، فكان فتح مصر ثم تبعه فتح برقة وطرابلس سنة (21 ـ 23هـ). ثم توالت الفتوحات نتيجة الحملات التي قادها عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام 27هـ وفتح تونس عقب موقعة سبيطلة ومقتل الوالي البيزنطي جرجير[2] لكن أهم ما يميز هذه الفترة هو وصول المسلمين واهتمامهم بالساحل والصحراء الأفريقية معاً، فقد روي أن عمرو بن العاص أرسل بسر بن أبي أرطأة عام 23هـ ففتح ودان[3].

وتشير روايات أخرى إلى أن عقبة بن نافع قد توغل جنوباً في الصحراء ففتح إقليم كوار الذي يكمل الطريق إلى السوادن التشادية، وبذلك أصبح إقليم فزان، وودان، وكوار مراكز مهمة لنشر الإسلام صوب جنوب القارة، وأصبح بين سكان كوار في فترة لاحقة أثر تزاوجهم مع العرب الذين استقروا هناك ـ عدد من الدعاة الذين نشروا الإسلام بين قبائل التبو، والكنورى، والفوليا.

ويرد أول نص عن السودان الغربي عند ابن عبد الحكم عند روايته لحملة جردت إلى السوس الأقصى إلى جنوب مراكش والسودان عام 116هـ/ 734م. بقوله: «وغزا حبيب بن أبي عبيدة الفهري(*) السوس الأقصى وأرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يُر مثله أحساب ما يشاء من الذهب»[4].

---

(2) أبو عبد الله أحمد المراكشي (ابن عذاري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق ومراجعة، ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980، ج1، ص11.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص9.

(*) حبيب بن أبي عبيدة الفهري: حفيد عقبة بن نافع، قاد بعض الحملات العسكرية جنوب المغرب الأقصى والبحر الشامي، خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب (116 ـ 123هـ/ 634 ـ 740م) انظر (ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص51.

(4) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق، عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961، ص10.

إن طبيعة الدعوة الإسلامية كان دافعاً قوياً حفز المسلمين على الاتصال بداوخل الصحراء، منذ وقت مبكر من تواجدهم في شمال أفريقيا، مما يؤكد الاعتقاد أن العامل الديني كان الدافع الأساسي في عملية الفتوحات الإسلامية والسر الذي جعل العرب الفاتحين لم يهملوا الصحراء، كما أهملها الرومان والبيزنطيون الذين مارسوا احتلالاً قائماً على الاستغلال الاقتصادي والمردود المادي المضمون، إذ لم يسجل التاريخ توغل هؤلاء في الصحراء إلا على نطاق محدود جداً[5].

إن التواصل بين سكان شمال القارة الأفريقية وجنوبها يمثل رابطاً من أقوى الروابط في تاريخ الاتصال بين منطقتين متباعدتين ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل يمكن أن يكون أهمها:

1 ـ عدم وجود حواجز طبيعية تفصل بين شمال القارة وجنوبها كالجبال العالية الصعبة أو الأنهار المعوقة والمانعة للاتصال، وإن الصحراء لم تكن إلا جسراً للتواصل بين المنطقتين.

2 ـ ظلت الحركة التجارية مزدهرة بعد دخول المسلمين إلى بلاد المغرب فانتشر الأمن والأمان على طول الطريق التجاري المعتمد من شمال القارة إلى جنوبها، وهو ما تتطلبه التجارة، فضلاً عما بدأت تحمله القوافل إلى جانب بضائعها ديناً جديداً، سرعان ما انتشر في ربوع الكون ومن بينها بلاد السودان الغربي الذي ارتبط تجارياً بالشمال الإفريقي وتوثق برباط الأخوة الدينية وما تميزت به من خصائص العدل والمساواة والتعاون، وغيرها من الخصائص التي دعا إليها الإسلام.

3 ـ لما كانت المياه أداة استمرار الحياة للمسافرين من الشمال إلى الجنوب

(5) توغل الرومان لم يتجاوز الأراضي الليبية جنوباً عند ملاحقتهم للجزمنت، انظر (بوفيل، إ. بي. و، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، تعريب الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، جامعة قاريونس، بنغازي، 1409هـ/ 1988م، ص75 و76.

والعكس فإن الفاتحين قد عملوا على حفر العديد من الآبار على الطريق، مما كان له عظيم الأثر على زيادة انتشار الإسلام وتواصل الحركة التجارية.

4 ـ في ظل الإسلام وانتشاره أصبحت هجرة القبائل من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال متواصلة. وفي فترات لاحقة استقرت قبائل الملثمين من صنهاجة الجنوب التي انتشرت في مساحات تمتد بين جنوب المغرب وشمال ووسط السودان الغربي.

لقد كان لهذه العوامل أثر كبير في تنشيط حركة القوافل التجارية عبر الصحراء على المدى الطويل فضلاً عن زيادة انتشار الإسلام بين سكان ما وراء الصحراء وبفعل المصاهرة بين المغاربة وسكان ما وراء الصحراء ظهر جيل جديد مارس التجارة، وتثقف بعلوم العربية ومنهم تجار الحوصا (الهوسا) الذين لهم الفضل في انتشار الإسلام على نطاق واسع شمال نيجيريا وكذلك بين قبائل الأشانتي وفي داهومي(*).

وبطبيعة الحال فإن إسلام عدد من التجار في بلاد السودان الغربي نتيجة اختلاطهم بالتجار العرب الوافدين قد ساهم في انتشار الإسلام على نطاق واسع بين ذويهم أولاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(6).

وعلى كل حال فإن دور هؤلاء التجار المستقرين في بلادهم كان واضحاً في الدعوة إلى الإسلام واستقطاب الكثيرين فهم يقومون بدعوة أهلهم وذويهم وبلغتهم وبصورة مستمرة بحكم الإقامة. فيتم التحول إلى الدين الإسلامي في نطاق الأسرة والقبيلة فيؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى كثرة الإبداع حتى أصبحت شعوباً بكاملها تعتنق الإسلام وأصبحت دولهم تبعاً لذلك دولاً إسلامية.

(*) الداهومي هي بنين الحالية.

(6) سورة التوبة، الآية: 122.

ومن جهة أخرى فإن بعض المصادر تشير إلى أن النشاط التجاري قد تطور بين القيروان وبلاد السودان الغربي منذ ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري (127 ـ 132هـ/ 745 ـ 750م) الذي نظم طرق القوافل بين جنوب مراكش وأودغست، وحفر عدداً من الآبار على هذه الطرق لتكون محطات تتزود فيها القوافل التجارية بالماء بين الواحات ومدينة أودغست كما استطاع التجار الوصول إلى بلاد الملثمين، وغرب أفريقيا عن طريق ساحل المحيط الأطلسي أو عن طريق الصحراء الذي أصلحه عبد الرحمن بن حبيب، فأصبحت أودغست ذات شأن في التجارة حتى قبل أن يفتحها المرابطون، ويذكر البكري المدينة بقوله: «بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلّمون للقرآن»[7].

ويقول ياقوت الحموي: إن أهل أودغست أسلموا على يد عبيد الله المهدي (ت 322/ 934م) ويضيف «إن أهلها مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وحمامات أسلموا على يد عبيد الله المهدي وكانوا كفاراً يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم»[8].

والراجح أن إسلام أودغست يعود إلى فترات سابقة بوساطة التجار الذين كانوا يفدون إليها. إذ أن موقعها التجاري كان يستقطب الجاليات العربية من كل مكان مما أدى إلى انتشار الإسلام، وربما ظل الأمر كذلك إلى عهد عبيد الله المهدي (296 ـ 322هـ/ 909 ـ 934م) إذ أن دخول الإسلام إلى غرب أفريقيا قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتجار والدعاة، فقد كان التجار يقومون بالدعوة إلى جانب التجارة. وقد تُجمع في شخص واحد التجارة والدعوة، وكان سلوك التجار

(7) أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، ج1، حققه وقدم له وفهرسه، أدريان فان ليوفن، واندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتدقيق والدارسات (بيت الحكمة) تونس، 1992، ص848.

(8) ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، ج1، تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423 ـ 2002، ص518.

وممارستهم لنشاطهم يثير اهتمام السكان الأصليين ويجعلهم يقتدون بالتجار ويتعرفون على دينهم الذي هذب سلوكهم ولين عريكتهم فيعتنقونه.

لم يكن تدفق العرب نحو أفريقيا دفعة واحدة، ولكنه كان في شكل موجات، إذ تشير بعض الدراسات إلى أنه منذ أيام عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م) وصلت مجموعات من العرب إلى (لامو) الواقعة على ساحل المحيط الهندي جنوب الصومال ثم لحقت بهم مجموعة أخرى من العرب. وهكذا تتابعت الموجات البشرية تجاراً ودعاة فاتسعت بذلك دائرة الداخلين في الإسلام الذابين عنه المقيمين لحدوده[9].

وخلال غزو الهلاليين لشمال أفريقيا (433هـ/ 1051م) وتنقلهم عبر الواحات اجتازوا إلى وسط وغرب أفريقيا وامتزجوا مع السكان في مملكة كانم التي كانت شرقي بحيرة تشاد، وترتب على ذلك ظهور جماعات (الكنمبو) وهم شعب سوداني إفريقي أصيل ومن جماعات الطنجورية ذوي الأصول العربية الهلالية، وكانت هجرتهم أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. حيث عبروا تونس إلى طرابلس ثم فزان. ومن هناك تفرقوا فذهب بعضهم إلى وادي، وبعضهم إلى كانم في حين تفرق الآخرون في أنحاء شتى جنوب الصحراء شملت بلاد التويو والبرتو مما يؤكد أن أغلب سكان كانم من أصول عربية.

إن تأثير التجار العرب في بلاد السودان عموماً والسودان الغربي على وجه الخصوص لم يقتصر على التقنيات التجارية وأشكال الحياة المادية فقط، وإنما لامس الكثير من المظاهر الحضارية والمعتقدات الدينية لمجتمعات ما وراء الصحراء مع تكثيف العلاقات بين المنطقتين، فقد وصل العديد من العلماء والمثقفين المسلمين إلى بلاد السودان بغرض الإقامة لمدة فيها، وفي بعض

(9) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الرقي 1450 ـ 1821م، ط3، 1989، ص34.

الأحيان للاستقرار بها نهائياً، كما توافد على البلاد العربية أعداد هائلة من طلاب العلم من مناطق الصحراء على البلاد العربية للدراسة، فالقوافل التجارية نقلت على مرّ الأحقاب الدعاة المسلمين إلى دروب إفريقيا، وساهمت بالقدر الذي لا يُنكر في الإشعاع الحضاري بتلك الجهات.

وما دمنا بصدد التأكيد على دور التجار في نشر الإسلام والتواصل بين مناطق الساحل والصحراء الأفريقية، فإن دور التجار الأفارقة لا يقل تأثيراً عن نظرائهم من العرب إذ يشير إلى هذا الدور أحد الباحثين المعاصرين بالقول «. . . وقد رأى هؤلاء السودانيون بثاقب نظرهم مقدار ما يمكن أن يحصلوا عليه من تجارة المناطق السودانية الواقعة تحت الحكم المباشر لملوكهم، فاهتموا بالتجارة والدعوة إلى الإسلام معاً حتى أصبحوا من أعظم الناشرين للإسلام في السودان الغربي»[10].

ولعل أشهر هؤلاء التجار الأفارقة الذين جمعوا بين التجارة ونشر الدعوة ينتمون إلى تجار الماندي[*] الذين أسسوا دولة غانا، ومع امتداد النفوذ الإسلامي إلى غانا أسرعت قبائل الماندي إلى اعتناق الإسلام منذ وصول المرابطين إليهم.

وقد امتدت سيطرة الماندي إلى كومبي صالح، وأودغست، وبعد أن سيطرت قبائل الصوصو على كومبي صالح سنة 600هـ/ 1203م، فاضطر التجار

(10) رولاند أوليفر وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة، دولت أحمد صادق، مصر 1965، ص98 كذلك عبد الله محمد الحواس، التجارة بين شمال أفريقيا وبلاد وجنوب الصحراء، وأثرها في نشر الإسلام (185 ـ 986هـ/ 801 ـ 1578)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح، 2004 ـ 2005ف. ص45.

(*) الماندي، قبائل تعيش في الصحراء، وتتفرع منها قبائل السوننك، وتضم جماعة السوننك فروعاً مختلفة، اشتهرت بأسماء مختلفة، وتعرف السوننك عند المغاربة باسم أسوانك وتعني الداعية، انظر: إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1975، ص18 و19.

الأغنياء إلى بناء مدينة على بُعد مائة ميل إلى الشمال أطلق عليها ولاته، فكان هؤلاء التجار على صلة بالتجار المغاربة ينقلون سلع الشمال إلى الزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء.

وبطبيعة الحال فإن الدور التجاري الذي لعبه تجار الماندي قد واكبه نشاط واسع في نشر الدعوة الإسلامية فأصبحت العقيدة الإسلامية ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية. حتى أن بعض العشائر ومنها السوننكة تكاد تختص بالعمل في نشر الدعوة الإسلامية فقط. بل إن كلمة سوننك في أعالي نهر غامبيا استخدمها «الماندنكا» الوثنيون مرادفاً لكلمة داعية مما يدل على الدور الكبير الذي لعبوه في التواصل بين المناطق المختلفة لنشر الإسلام والدعوة إليه.

ولم يكن تجار الهوسا المهاجرين أصلاً من بلاد المغرب متوغلين في جنوب الصحراء أقل حماساً في نشر الدين الإسلامي عند مقدمهم من شمال القارة بفعل الغزو الهلالي الذي تعرضت له بلاد المغرب وعاشوا جنباً إلى جنب مع الملثمين الصحراويين فترة طويلة من الزمن تزاوجوا خلالها وعرفوا باسم الهوسا أو الحوصا. وقد اشتهرت فئة التجار منهم بكثرة الترحال وحب المغامرة، وأصبحت بلادهم في شمال نيجيريا لا تقل أهمية عن تمبكتو وبخاصة أن موقعها كان يربط الطريق التجاري الجنوبي الذي يمتد من تونس ماراً بمدينة غات وغدامس وجبل أير.

ويرى بعض الباحثين أن شعب الحوصا كان على الوثنية باستثناء إمارة (كانو) التي دخلها الإسلام على يد علماء وتجار مغاربة سنة 658هـ/ 1300م.

وهنا يمكن الإشارة إلى أن الإسلام لم يكتسح الشعوب والقبائل اكتساحاً ولكنه تسلل حتى غدت في بعض الأحيان قبيلة مسلمة إلى جوار قبيلة وثنية، كما يمكن ملاحظة الملوك والسلاطين الوثنين يشهدون الأعياد الإسلامية إلى جانب المسلمين ويتقدمون بالهبات والعطايا إلى الأئمة والعلماء.

وقد فتح هذا التسامح ولين المعاملة الطريق أمام أعداد كبيرة من الوثنين لاعتناق الإسلام طواعية، مما شجع إمارات الهوسا على الدعوة إلى الإسلام في المناطق البعيدة والمجاورة لهم.

أما قبائل الفلاني فإنها كانت تتكون من عدد من القبائل المتناثرة تحترف الزراعة والرعي في بقاع مختلفة من أرض السودان، واختلف المؤرخون في أصلهم، وإن اتفقوا إلى أنهم جاؤوا إلى المغرب مهاجرين من جهة الشرق فبقي بعضهم ومضى البعض الآخر صوب بلاد السنغال، ثم أخذوا في القرن السابع/ الثالث عشر الميلادي يتجهون صوب شمال نيجيريا[11].

وقامت قبائل الفلاني بالزحف نحو الشرق واستقر بعضهم في مناطق جنوب بحيرة تشاد، وهناك امتزجوا واختلطوا مع قبيلة عرب الشاوية[*] والتي تمثل آخر الموجات العربية التي زحفت نحو مناطق السودان[12].

أما إسلام قبائل الفلاني فإنه تم عقب زحف المرابطين على غانا، وكانوا بها فاعتنقوا الإسلام، أي منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وعندما حلت دولة مالي مكان غانا وأصبحوا جزءاً منها، عندها تمكن الإسلام منهم، وبخاصة أولئك الذين احترفوا التجارة فكانوا على اتصال بالمراكز التجارية في شمال القارة وجنوبها، وبخاصة أن الإسلام قد ضمن لهم مزيداً من الأمن والثراء.

---

(11) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، دار النهضة، 1963، ص119.

(*) الشوا، يطلق هذا الاسم على العرب عموماً بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية، وهم مجموعات عاشت في أفريقيا منذ القدم. ويتقسم الشوا إلى مجموعات منها عرب جهينة، وجاء هؤلاء عبر وادي النيل الأوسط وكردفان، ودار فور، ومن الشوا من يقوم برعي الإبل ويسمون الأبالة، أما رعاة الماشية منهم فيسمون البقارة. انظر (الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1972، ص433.

(12) كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1987، ص130.

ويذكر أرنولد «أن هؤلاء الفلاني في جميعهم مسلمون متحمسون، فحيثما وُجدوا تجد مسلماً»[13].

أما تجار الكارمية فكانوا من بلاد كانم في السودان الغربي، وعرفوا أيضاً بتجار التكرور نسبة إلى المملكة التي ينتمون إليها «مملكة التكرور».

وتمثل دور هؤلاء التجار في دعم التواصل بين شمال القارة وجنوبها بتوفير سبل الرعاية لطلاب العلم المرتحلين إلى معاهد الشمال. كما أن قوة تأثيرهم التجاري مكنهم من تكوين نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها، كما اعترفت الحكومة بتلك النقابة التي أقاموها.

أما أعمال وتجارة الكارمية فإنها قد امتدت من وسط الصحراء الأفريقية إلى شمال البحر المتوسط وساحل أفريقيا الشرقي، وعبر البحر الأحمر إلى مصر[14].

ولم يقتصر دور الكارمية على النشاط التجاري، ولكنهم عملوا على نشر الإسلام في جنوب الصحراء فاتصلوا بكانو، وتمبكتو، وجنى، وجاو، وعملوا على تشجيع الحركة الثقافية الإسلامية، فبنوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلاب العلم، وبجهودهم انتشر الإسلام في بلاد الهوسا وما حولها.

وبطبيعة الحال فإن التواصل بين شمال القارة وجنوبها ظل يتنامى في ظل الإسلام ومبادئه القيمة، ولعلنا نجد في رحلة منسا موسى إلى الحج صورة مثالية للتقارب بين جنوب القارة الأفريقية وشمالها عندما اصطحب معه عدداً من علماء مذهب مالك حوالي سنة 1325م. ليكونوا مستشارين له وليفقهوا الأفارقة في الدين، ويدعون من بقي منهم على الوثنية إلى الإسلام[15].

---

(13) توماس، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مصر، مكتبة القاهرة، 1947، ص370.

(14) الشاطر بصيلي، المرجع السابق، ص391.

(15) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1983، ص59 ـ 60.

ومن جهة أخرى فقد لعبت الجاليات العربية المستقرة في جنوب القارة الأفريقية بفضل تزاوج أبنائها بالسودانيات دوراً مهما في دعم التواصل بين شمال القارة وجنوبها فضلاً عما قدمته الثقافة الإسلامية من خلال دعاتها وعلمائها وتجارها من زاد ثقافي في احترام الذات والثقافة الأفريقية الأصيلة وبخاصة ما يتمشى منها مع روح الإسلام، ومبادئه. إذ يشير يوسف فضل الله إلى أثر الإسلام في تطور المجتمعات الأفريقية قائلاً: «ومن الشمال الأفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان حيث نشأت السلطنات السودانية الإسلامية التي جمعت في نظمها السياسية أنماطاً محلية ونظماً إسلامية.

وفيها تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع المؤثرات الأفريقية، ونتيجة لهذه الجهود اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجزء الشمالي من القارة»[16].

إن اعتناق تجار «فيما وراء الصحراء» للإسلام هو الحدث الأساس فيما يخص تسرب الدين الإسلامي إلى معظم أجزاء القارة الأفريقية. فضلاً عما قدمته الجاليات العربية الإسلامية الموجودة في أفريقيا ـ في معظم بلدانها ـ في التعريف بالإسلام ومبادئه القيمة نظرياً وتطبيقياً.

ومن جهة أخرى فإن العقلية المنفتحة للسياسيين والتجار في المدن الأفريقية أي الفئات المتعلمة من المجتمع الأفريقي التي فهمت بسرعة أن من مصلحتها التحالف، والمشاركة مع التجار والعلماء والفقهاء المسلمين لتكوين جبهة إسلامية قادرة على توطيد عرى التضامن والتواصل بين شمال القارة وجنوبها.

وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي لعبه الإسلام في

(16) يوسف فضل الله، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ضمن كتاب العرب وأفريقية مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص29.

تأطير الممالك والإمبراطوريات الأفريقية بداية من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عندما اعتنق أهم سلاطين أفريقيا جنوب الصحراء الإسلام وبخاصة في (غانا ـ غاو ـ مالي ـ والتكرور) وابتداء من القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

أصبح الإسلام متجذراً نسبياً داخل دائرة مملكة مالي التي يعتقد أنها وضعت أسس حضارة أفريقية مسلمة بفضل امتدادها الجغرافي الكبير الذي غطى معظم بلاد السودان الغربي.

ونتيجة لذلك التواصل الثقافي بين متساكني الساحل والصحراء الأفريقية يمكن القول إن الإسلام لم يسع إلى هدم الأسس القديمة للمجتمعات الأفريقية، وتقويض القيم وجُلّ العادات الأفريقية، بل عمل على أن تلائم الدين الجديد. وبالتدرج نجح الإسلام في معركته ضد التقاليد المحلية، والأحكام الجديدة أدت إلى انصهار بينهما وإلى ظهور المجتمع الزنجي المسلم ذو الخصائص المتميزة[17].

الخاتمة

يظل الإسلام وثقافته الدينية أهم عامل تتمحور حول عملية التواصل بين شمال القارة الأفريقية وجنوبها. إذ بفضله انتعش وينتعش التواصل بين الساحل والصحراء الأفريقية. إن الإسلام بقيمه ومبادئه السامية المواكبة للنظرة الإنسانية وما به من قيم تحث على الصدق والأمانة والإخلاص والإيثار وإغاثة الملهوف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. في ظل هذه القيم وغيرها من القيم الإنسانية الخالدة كان التواصل الثقافي الذي أسهم الدين الإسلامي في تأكيده. ويكفي القول إن الإسلام قد دخل شمال القارة وجنوبها بالطريقة نفسها؛ حروبٌ

(17) أحمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، 1982، ص659.

قليلة ومعارك محدودة ثم تواصل دائم مستمر. وما ينطبق على شمال القارة ينطبق على جنوبها. فلا يمكننا أن ندَّعي أن الشمال هو الذي صدر الإسلام إلى الجنوب إذ أن الإسلام قد جاء من شبه الجزيرة العربية فوصل إلى الشمال والجنوب في أزمنة متقاربة كما هو الشأن في الشمال وحده إذ فتحت مصر ثم برقة وطرابلس ثم تونس ثم الجزائر فالمغرب والأندلس.

ومن خلال التجارب الماثلة للعيان يمكن التأكيد أن هناك رافداً قوياً يمكن أن يعوض مرحلة الاستلاب التي مارسها الاستعمار الأوروبي في القارة وعمله الدؤوب على محاربة الإسلام وطمس هويته بمحاربة اللغة التي جاء بها. على أنه لا يجب إنكار أن الاستعمار قد تمكن من فرض لغته؛ فرنسية في غرب أفريقيا إنجليزية في شرقها. لكن يظل الإسلام شامخاً في العديد من الدول الأفريقية. ثم إن الخطر الذي يدق على أبواب القارة لا يعرف مسلماً أو مسيحياً بل الجميع معرضون للخطر وعليهم مواجهة الآخر صفاً واحداً لا يمكن اختراقه. وأختتم ورقتي هذه بأبيات شعر لأحمد شفيع أستاذ الجامعة الإسلامية بالنيجر في قوله:

إن اكتشفنا ماضينا يدعو إلى ... الإعجاب والتغيير والعمل الرشيد
حتى نحقق وحدة جدية ... فكرية ترضي الضمائر من جديد
ونعيد للصحراء سابق عهدها ... تصل الشمال إلى الجنوب بلا حدود
إنا لنرجو صحوة فعلية ... تتجاوز الخطب الطويل والقصيد

* * *

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر:

1 ـ **القرآن الكريم**، رواية قالون (مصحف الجماهيرية).

2 ـ **ابن عبد الحكم**، عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق، عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961.

3 ـ **البكري**، أبو عبيد عبد الله: المسالك والممالك، ج2 حققه وقدم له وفهرسه، أدريان فان لُيوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)، 1992.

4 ـ **الحموي**، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، ج1، تحقيق عبد الله بن يحيى السريجي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.

5 ـ **ابن عذاري**، عبد الله بن أحمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق ومراجعة، ج.س كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980.

6 ـ **العمري**، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الامصار، تحقيق، مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1983.

ثانياً ـ المراجع:

7 ـ أرنولد، توماس، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وآخرون، مصر، مكتبة القاهرة، 1947.

8 ـ أوليفر، رولاند، وجون فيج: **موجز تاريخ أفريقيا**، ترجمة، دولت أحمد صادق، مصر، 1965.

9 ـ بوفيل، إ.ي.و: **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، تعريب الهادي أبو لقمة، ومحمد عزيز، جامعة قار يونس، بنغازي، (1404هـ/ 1988م).

10 ـ حسن، حسن إبراهيم: **انتشار الإسلام في القارة الأفريقية**، القاهرة، دار النهضة، 1963.

11 ـ الحواسي، عبد الله محمد: **التجارة بين شمال أفريقيا وبلاد جنوب الصحراء، وأثرها في نشر الإسلام** (185 ـ 985هـ/ 801/ 1578م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح، طرابلس، 2004 ـ 2005ف.

12 ـ طرخان، إبراهيم: **إمبراطورية غانا الإسلامية**، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1975.

13 ـ **عبد الجليل، الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط**، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1972.

14 ـ **الغربي، أحمد: بداية الحكم المغربي في السودان**، بغداد، 1982.

15 ـ **فضل الله، يوسف: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية**، ضمن كتاب العرب وأفريقيا، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، 1989.

16 ـ **فضل، حسن يوسف: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، 1450 ـ 1821م**، ط3، 1989.

17 ـ ماكيفيدي، كولين: **أطلس التاريخ الأفريقي**، ترجمة مختار السويفي، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، 1987.

18 ـ الميار، عبد الحفيظ فضيل: **دراسة تحليلية للنقائش الفينيقية البونية في إقليم المدن الثلاث في ليبيا**، منشورات جامعة الفاتح، الجماهيرية العظمى، 2005ف.